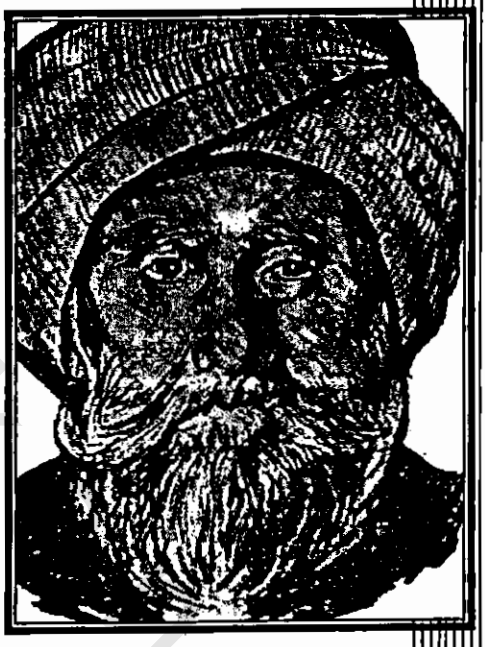

الطرطوشـــــــي

(٤٥١-٥٢٠هـ=١٠٥٩-١١٢٧م)

صلاح الراعي والرعية

obeikandl.com

تاريخنا الإسلامي والعربي مليء بعلماء الدين ومشايخه الذين كانوا علامات وضاءة في مسيرة الحضارة، وكانوا مثالا للنزاهة والعلم والتقى والورع والدفاع عن حقوق الناس والسعي لتطبيق العدالة والزود عن الشرع وإعلاء راية الحق.

من هؤلاء «أبو بكر الطرطوشي»، العالم الزاهد الجريء، الذي لا يخشى في الحق لومة لائم، والذي لا يخاف صاحب السلطان ولا يهابه. فقد كان أبي النفس قوالا للحق.

هو «أبو بكر بن محمد الوليد» بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري «الطرطوشي»، المشهور بابن أبي رندقة، وُلِدَ في ٢٦ من جمادى الأولى سنة ٤٥٠هـ في مدينة طرطوشة بالأندلس.

وفي مسجد طرطوشة الكبير تلقى «أبو بكر محمد بن الوليد» علومه الأولى، ولما شب عن الطوق رحل إلى مدن الأندلس الكبيرة الأخرى يستزيد من العلم، فذهب إلى مدينة سرقسطة واتصل بكبير علمائها في ذلك الوقت.. القاضي أبي وليد الباجي، وسمع منه وأجاز له.

وكانت أسرة والدته من سرقسطة، وكان بعض أفراد هذه الأسرة من رجال الحرب الشجعان المبرزين. وكان والده الذي ينتهي نسبه إلى قريش من المشتغلين بالعلم، ولهذا وجه ابنه إلى تحصيل العلم. وكانت أسرته على شيء من الثراء، ومع ذلك كان يعمل حارسا للبساتين.

وعندما وصل إلى الخامسة والعشرين من عمره قرر أن يتجه إلى المشرق مواصلا تحصيل العلم في مكة والعراق والشام ومصر.

في سنة ٤٧٦هـ غادر «الطرطوشي» وطنه، فوصل إلى مكة، واستقر بها قليلا بعد أداء فريضة الحج، يلقي بعض الدروس، ولكنه لم يمكث بمكة طويلا، بل استأنف رحلته واتجه إلى بغداد.

***

زاهد بغداد:

كانت بغداد في ذلك الوقت مركزا من أكبر مراكز العلم في العالم الإسلامي، وكانت محط رحال العلماء، يفدون إليها من أقصى المشرق ومن أقصى المغرب، فكان لابد «لأبي بكر الطرطوشى» أن يرحل إليها ليستكمل دراسته، ويتصل بعلمائها الأعلام، ويتتلمذ عليهم ويأخذ منهم.

اندمج «الطرطوشى» في الحياة العلمية النشطة ببغداد، واستمع إلى نخبة العلماء الممتازة بها، أمثال «أبي العباس الجرجاني» و«أبي محمد التميمي» و«أبو بكر الشاشي» و«أبو نصر بن الصباغ»، وغيرهم من العلماء الأجلاء، وشارك في حلقاتهم. وهناك تأثر بفلسفة الزهد والعزوف عن اللذات والشهوات، والجرأة علي كل كبير في سبيل الحق واتخذها طريقة له، فهو ينظر إلى كل كبير بهذه النظرة التي لا ترى فيه قوته وسلطانه وجبروته ولكنها ترى فيه قيمته ومصيره وأن أي سلطان لابد أن يكون هدفه تدعيم أوامر الله سبحانه وتعالى.

وهكذا ما أن غادر «الطرطوشى» العراق سنة ٤٨٠هـ، بعد ثلاثة أعوام قضاها في الدرس والتحصيل حتى اتخذ لنفسه أسلوب حياة الزهد والبعد عن مباهج الدنيا، فقد التزم الزهد فلسفة حياة.

نفس أبية:

دخل «أبو بكر الطرطوشي» الشام بعد أن أتم دراسته، وبعد أن حصل من العلوم ما حصل، وبعد أن بلغ من النضج الفكري درجة تؤهله للتدريس لينفع الناس بعلمه، وبعد أن كون لنفسه فلسفة خاصة قوامها الزهد والسعي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأقبل عليه الناس وأحبوه، وأفادوا من علمه، فعلا اسمه وبعد صيته.

ومع ذلك عاش هناك متقشفا عابدا زاهدا منقبضا عن الناس، إذا أكل أكل في شقف من الفخار، وكان أصحاب الحكم والسلطان يسعون إليه وإلى بره، ولكنه

كان ينصرف عنهم، ويشتد عليهم في القول وإسداء النصيحة.

كان هكذا دوما سواء بالشام أو في بيت المقدس،قيل أنه كان ببيت المقدس يطبخ في شقف، وكان مجانبا للسلطان معرضا عنه وعن أصحابه، شديدا عليهم مع مبالغتهم في بره.

ويبدو أن نفسه الأبية وصراحته والتزامه القول الحق أثارت ضده بعض الحاسدين من أهالي بيت المقدس، فسعوا به لدى حاكمها ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه، واستدعاه الحاكم إليه، فلم يأبه لدعوته ورفض أن يذهب إليه.

وطوف «الطرطوشي» في معظم مدن الشام، بيت المقدس وجبل لبنان، ودمشق وحلب وأنطاكية، التي كان بها في أواخر سنة ٤٩٠هـ. وعندما استولى الصليبيون على أنطاكية وسواحل الشام كلها وبيت المقدس في سنة ٤٩١هـ. اتجه إلى مصر وهو في الأربعين من عمره، وقد جاء إلى الشام وهو في الثلاثين، ولم يغادره إلا بعد أن أصبح له تلاميذ كثيرون ومعجبون به وبعلمه، ويتسابقون إلى حلقات دروسه(*).

مُعلم الإسكندرية:

وصل «أبو بكر الطرطوشي» إلى مصر برفقة صديقه الشيخ عبد الله السايح حيث نزلا برشيد وأقاما بها، وعندما استولى الوزير الأفضل شاهنشاه على الإسكندرية انتقم من أهلها الذين أيدوا نزار ابن الخليفة المستنصر وقام بقتل العديد من العلماء المالكيين فتعطلت الشعائر الدينيّة ولم تقم الجمعة في مساجدها، وسمع أهل الإسكندرية أن في رشيد فقيهًا كبيرًا فركبوا إليه يطلبون منه أن يتصدر حلقات الدرس في مساجدهم ليفقه الناس في أمور دينهم.

استقر بالطرطوشى المقام في الإسكندرية وبدأ يدرس وينشر العلم على مذهب مالك، وتقاطر الناس على حلقاته يأخذون عنه ويقرؤون عليه ويفيدون من علمه،

(*) جمال الدين الشيال، أبو بكر الطرطوشى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، سلسلة أعلام العرب.

وجذب الطلاب والعلماء إلى حلقات دروسه.

وتزوج بعد قليل من سيدة موسرة من نساء الإسكندرية، فأطلقت يده في أموالها وتحسنت أحواله، ووهبته دارا من أملاكها، جعل سكنه معها في الدور الأعلى واتخذ من الدور الأسفل مدرسة يلقي فيها دروسه ويستضيف فيها طلاب لعلم من الغرباء الوافدين على الإسكندرية.

وكانت هذه السيدة الفاضلة تقية متدينة، من بيت من أكبر بيوت الإسكندرية وقتذاك فضلا وعلما وجاها وثروة، بيت «بني عوف» فهي خالة فقيه الإسكندرية وكبير علمائها «أبي الطاهر بن عوف»، تلميذ «الطرطوشى» وخليفته فيما بعد.

نصيحة العلماء:

وبعد أن استقرت الحياة «بالطرطوشى» في الإسكندرية خرج لزيارة القاهرة وهناك حرص على لقاء الوزير صاحب السلطان الأعلى وقتذاك «الأفضل شاهنشاه» بعد أن سمع عن جبروته وقوته وسلطانه لا ليسأله منحة أو عطية، ولا ليقدم له المديح ويشيد بذكره بل لينصحه نصيحة العلماء المخلصين، وليعظه الموعظة الحسنة، وليطلب إليه الرفق بالرعية وإشاعة العدل بينهم وفتح أبواب قصره لكل شاك أو متظلم.

بعد أن حياه بتحية الإسلام قال له:

- أيها الملك: إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلا عاليا شامخا، وأنزلك منزلا شريفا باذخا، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك.

وأن الله تعالى ألزم الورى طاعتك، فلا يكونن أحد أطوع لله منك، وأن الله تعالى أمر عباده بالشكر، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعل والإحسان، قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

واعلم أن هذا الملك الذي أصبحت فيه إنما ثار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك مثل ما صار إليك.

فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل، قال الله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣] وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

واعلم أيها الملك إن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود -عليهما السلام- فسخر له الإنس والجن والشياطين والوحوش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم دفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال له: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص:٣٩].

فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به، فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾[النمل:٤٠].

فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم أعانك الله على ما قلدك، وجعلك كهفا للملهوف، وأمانا للخائف.

هكذا خاطب «الطرطوشي» العالم الزاهد الملك الأفضل ذا الحول والطول، وهو في أوج سلطانه وعظمته، والكل يأتمرون بأمره، فهز كيانه هزا وإن كان استنكره فيما بينه وبين نفسه.

وعاد «الطرطوشي» إلى الإسكندرية ليستأنف سيرته الأولى وليتفرغ للعلم والتعليم، وتكاثر طلابه، وأقبلوا على دروسه وأحبوه، واصطنع هو لهم طريقة جديدة هي أقرب شيء إلى طرق التربية الحديثة، فلم يقصر اجتماعاته بهم على طرق الدرس، بل كان يصطحبهم ويخرج معهم في معظم الأوقات في رحلات خارج

المدينة إلى البساتين والأماكن الخلوية، وهناك في الهواء الطلق يلقنهم دروسه فكثر طلابه وزاد عددهم.

مكيدة القاضي:

ولكن هذا الإقبال جر على «الطرطوشي» الوبال، فقد ضاق به قاضي الإسكندرية «ابن حديد» ضيقا شديدا، فقد انتظر «ابن حديد» من «الطرطوشي» عند نزوله بالمدينة أن يسعى إليه، وأن يمدحه وأن يكون من حاشيته، ولو أنه فعل هذا لأغدق «ابن حديد» عليه العطايا، وليسر عليه شؤون الحياة جميعا. ولكن «الطرطوشي» كان صنفاً آخر من الرجال،كان رجلا يعتد برجولته، وكان عالما يعتز بعلمه، وكان بعد هذا زاهدا، لا يحبذ هذا النوع من الحياة المترفة الباذخة التي كان يحياها «ابن حديد». وقد أخذ على «ابن حديد» بعض تصرفاته المالية وبعدها عن قواعد الشرع والإسلام، وأطلق لسانه يتحدث إلى الناس بهذه المآخذ المالية، ويعيد الحديث ويكرره في عنف وقسوة مما آلم «ابن حديد» وآذاه.

وكانت «للطرطوشي» إلى جانب هذا فتاوى كثيرة يعارض بها بعض النظم والقواعد القائمة التي تأخذ بها الدولة، كما كان ينتقد كثيرا من العادات السائدة في المجتمع، والتي تنافي الدين الإسلامي، إضافة إلى ذلك فقد جذب «الطرطوشي» إليه عددا ضخما من تلاميذ الإسكندرية وعلمائها، فصار إذا انتقل من مكان إلى مكان، أو إذا خرج إلى رحلاته خرج في موكب حافل مهيب، وفي هذا دون شك منافسة خطيرة لقاضي المدينة ورجلها «ابن حديد» وفيه خطورة محققة على مركز «ابن حديد» ومكانته.

كل ذلك جعل القاضي يرفع إلى الوزير «الأفضل» تقريرا يؤكد فيه خطورة «الطرطوشي» على الإسكندرية وأهلها، وأن هذا العالم الزاهد الثائر لو ظل على سياسته هذه ينتقد المجتمع وينتقد الحاكم، وينتقد القاضي وأحكامه، وينتقد القواعد والنظم المالية المتبعة، وينادي بتحريم الجبنة الرومي وغيره من المأكولات

الواردة من أوروبا، فإنه سيسبب للدولة متاعب كثيرة وسينقص من مهابتها في أعين الشعب، وسيحرض الناس على مقاطعة التجارة الأجنبية، فتنقص إيرادات الدولة بنقصان الضرائب التي تؤخذ على هذه التجارة الواردة.

تحديد إقامة:

كل هذا دفع الأفضل إلى تحديد إقامة «الطرطوشي» في مسجد «الرصد» جنوبي الفسطاط، ومنع الناس من الاتصال به والأخذ عنه. وقد امتد هذا الاعتقال شهورا فضاق به هذا العالم الورع، ولما اشتد به الضيق أعلن امتناعه عن أكل شيء مما يأتيه به الأفضل، ثم اعتكف يصلي ويتعبد ويبتهل إلى الله، حتى قُتل الأفضل، وتولى الوزارة بعد الأفضل «المأمون البطائحي»، وكان يعلم ما بين الرجلين فأفرج عن الشيخ وأكرمه إكراما زائدا وقربه إليه.

وعاد «الطرطوشي» إلى الإسكندرية واستأنف بها حياته ونشاطه العلمي، ولم تنل منه الأيام ولم تفل من حدته، فقد كانت تشغله دائما الأمور التي كان يراها منافية للشرع والعدل، والتي سبق أن تقدم للأفضل يطلب تغييرها، فلم يستمع إليه وقد خشي «الطرطوشي» أن تأخذ الوزير الجديد عزة الحكم وأبهة السلطان فيسير على نهج سلفه.

لهذا بدأ بعد عودته إلى الإسكندرية مباشرة يؤلف كتابا في السياسة وفن الحكم، وما يجب أن يكون عليه الراعي والرعية، وأتم الكتاب في سنة كاملة وسماه «سراج الملوك» وفي شوال سنة ٥١٦هـ حمل الكتاب، وسافر إلى لقاهرة ليقدمه إلى الوزير الجديد، وليعيد الحديث معه في الأوضاع السقيمة القائمة في الدولة، والتي لا يقرها الشرع.

قضية الميراث:

ومن الأمور الظالمة التي كانت منافية للشرع أمر ميراث البنت، فقد كان القضاة في مصر على العصر الفاطمي يتبعون المذهب الشيعي الإسماعيلي، وهذا المذهب يقضي بأن ترث البنت كل ما يترك أبوها إذا كانت وحيدة لا أخ لها ولا أخت، ويحرم

العصبة من المشاركة في الميراث.

وكانت النظم الوضعية المتبعة تقضي أيضا بأن يأخذ الموظفون القضائيون المشرفون على شؤون الميراث ربع العشر من أموال اليتامى عند توزيع التركة بمثابة أجر لهم.

وكان «الطرطوشى» يرى في الأمر الأول..ميراث البنت مخالفة للشرع في نظره، وكان يرى في الأمر الثاني ظلما فاحشا واغتصابا لحق الأيتام، ومن واجب الحكومة أن تحافظ على أموالهم وتصونها لا أن تقتطع جزءا منها لموظفيها.

وبعد نقاش طويل وافق «المأمون البطائحي» على حل وسط يرضي المذهب الرسمي للدولة ويرضي «الطرطوشى»، فقد وافق على إصدار أمر للقضاة بأن يتبع في الميراث مذهب الميت، فإن كان سنيا أتبع المذهب السني، وإن كان شيعياً أتبع المذهب الشيعي.

أما الأمر الثاني فقد وافق عليه الوزير منذ اللحظة الأولى، وأمر بأن يُصرف للموظفين راتب من خزانة الدولة بدلا من المبالغ التي كانوا يقتطعونها من أموال اليتامى.

أديب بارع:

وبعد نحو شهرين من إقامته في القاهرة عاد «الطرطوشي» إلى الإسكندرية يُعلم الناس ويدعو إلى المعروف وينهي عن المنكر قاضيا أوقاته ما بين العبادة والتأليف، حتى توفاه الله في ٢٦ من جمادى الأولى ٥٢٠هـ، ٢٠ من يونيو ١١٢٧م.

ومن أشهر مؤلفاته «مختصر تفسير الثعالبي»، «الكتاب الكبير في مسائل الخلاف»، «شرح رسالة الشيخ أبي زيد القيرواني»، «كتاب الأسرار»، و«سراج الملوك» و«كتاب الحوادث والبدع»، و«بر الوالدين»، «رسالة تحريم العناء واللهو على الصوفية في قصصهم وسماعهم»، و«رسالة في تحريم جبن الروم»، و«كتاب الفتن»، و«نزهة الأخوان المتحابين»، و«كتاب الدعاء»، «نفائس النفوس»، وغيرها.

وكان «الطرطوشي» إلى جانب تضلعه في أمور الشريعة ومسائل الخلاف أديبا بارعاً ويظهر ذلك الأسلوب الرشيق الجميل في كتابه سراج الملوك، وكان شاعراً محسناً، وقد زود كتابه هذا بنماذج رائعة من شعره، ظلت أبياتاً منها تتردد على الألسنة حتى يومنا هذا، مثل قوله:

إن لله عبـــــاداً فطنـــــا ... طلقـوا الـدنيا وخـافوا الفتنـا
فكـروا فيهـا، فلـما علمـوا ... أنهـا ليسـت لحـي وطنـا
جعلوهـا لجّـة واتخـذوا ... صـالح الأعـمال فيهـا سـكناً